مثير للشفقة الى أقدام إتيين يستجدون الصلح . وانتزعت مدن روسية اخرى بينما كان السويديون ينتصرون في ليڤونيا في كل مكان على الموسكوفيين المحبطين . وأمحى القسم الأكبر من انتصارات إيڤان الامبراطورية بسرعة كبيرة بينما كان القيصر يهرم وينحني منه الظهر . فمن يحكم الآن روسيا كان عجوزاً . فهل من علامات السن أنه أصبح أكثر رقة ولم يعد يحمل لقواده ما يشعر به في داخله من استياء ؟ كتب يقول بدون غضب : « ثابروا واتبعوا الطريق الذي حدده الله لكم ، فأملي منصب كله على مساعدة الله وما تبذلونه من حمية وحماسة » .

ولكن القيصر بعد أن تخلى عن زوجتيه الخامسة والسادسة اتخذ له الان زوجة سابعة هي ماريانا غابا « أي ماريا العارية » . وكانت ابنة لأحد كبار موظفي البلاط . ولكن القيصر لم يأخذها الى الهيكل لأنه كان من البديهي وجود صعوبات أمام حصوله على موافقة الكنيسة . وهكذا استطاع مؤرخ هذه الحادثة ان يسمي هذه الزوجة ـ على هواه ـ « خليلة القيصر » على الرغم من أن بيتها كان بيت الزوجية . وقد عوملت ماريا حقا على أنها زوجة شرعية . أما اصغر ابناء القيصر فقد تزوج هو الاخر وفي الوقت نفسه فتاة اسمها ايرينا هي اخت بوريس غودونوف .

وأما الملك إتيين الذي هتف له في بولونيا على انه بطل كبير فقد أفاد من وسواس القيصر المرضي . ولم يكن قد هيىء له أن يقاتل ضد روسيا حقيقية مقاتلة ، فقد كان موفدو القيصر يلاحقونه من مكان الى مكان ويتذللون أمامه حتى تمريغ جباههم في الارض . كان بطلا ، ولكنه كان يمتلك فكرة مهووسة عن رسالته التي لم تكن أقل من إخضاع روسيا كلها والحاقها ببولونيا . وقد أثار تذلل القيصر أطماعه حتى سمح لنفسه بأكثر الادعاءات تجاوزا وتطرفا . ولم يكن المرتزقة الهنغاريون والالمان الذين يرتبط بهم بشكل رئيسي بقادرين على تأمين النجاح لمخططاته وعندما يغزو روسيا لا يكون عندئذ في حرب مع إيڤان وحده بل مع الشعب الروسي كله ، فعلى الرغم من جبن القيصر وتردده هبت